كلية : الاداب

القسم او الفرع : التاريخ الاسلامي

المرحلة: الدكتوراه

أستاذ المادة : ا.د. قحطان عدنان البكر

اسم المادة باللغة العربية : الفكر الاسلامي

اسم المادة باللغة الإنكليزية : Islamic thought

اسم المحاضرة السابعة باللغة العربية: المنهج التجريبي الإسلامي بين ابن خلدون وابن الأزرق: المقارنة بين ابن خلدون وابن الأزرق الفارقي.

اسم المحاضرة السابعة باللغة الإنكليزية :

The Islamic Experimental Approach between Ibn Khaldun and Ibn al-Azraq: .Comparison between Ibn Khaldun and Ibn al-Azraq al-Fariqi

...

من الأسئلة التي لطالما شغلت المهتمين بالدراسات الخلدونية مسألة الأثر الذي تركته أفكاره على من جاء بعده من علماء مسلمين. وقد انكر المستشرقون ان يكون لهذه الأفكار صدى في الأجيال التالية. وفسر البعض ذلك بأن أفكار ابن خلدون الوضعية التي حاولت تفسير حركة التاريخ على أساس نظرية العصبية، هذه الأفكار لم تجد لها قبولا لدى المفكرين المسلمين لانها تخالف – بزعم المستشرقين- المفهوم الإسلامي القائم على التوجيه الإلهي لحركة البشرية. الا ان هذا الزعم الاستشراقي لا أساس له، فلا ابن خلدون قد خرج على المفهوم الإسلامي في تفسير التاريخ ولا أساس لعدم تأثر من جاء بعده بفكره. واذا كانت المسالة الأولى خارج نطاق بحثنا، فاننا نطالع ان من الباحثين من وجد أصداء أفكار ابن خلدون في الأجيال التالية، ولاسيما لدى طالبه المقريزي العالم والمؤرخ المتعدد المواهب. الا ان ما يثير الذهن اكثر ان نجد ان بين أبناء الجيل التالي لابن خلدون عالما تفوق عليه ونجح في تطوير مفاهميه والبناء عليها، فضلا عن كشفه عن مصادر فكر ابن خلدون وهذا العالم هو ابن الأزرق صاحب كتاب (بدائع السلك في طبائع الملك).

من المعروف ان ابن خلدون(ت ٨٠٨ ه) قد شغل الفكر الأوربي الحديث والمعاصر بطروحاته التي تضمنتها مقدمته الشهيرة، فعده البعض من رواد فلسفة التاريخ وعلم الاجتماع وانه من الهم المفكرين الغربيين في هذه الميادين، بل أنه مؤسس المنهج العلمي التجريبي. وأساس هذا الحكم تأكيده على دور الموضوعية في اصدار الاحكام في الدراسات السياسية والاجتماعية. الا ان الخلاصة التي يصل اليها البحث العلمي الحديث هي ان منظومة أفكار ابن خلدون التي تضمنتها مقدمته تفتقر الى مقومات مهمة لتصبح مستوفيه للمنهج العلمي التجريبي المتكامل الا وهي صفة النسبية، لأن احكام ابن خلدون يغلب عليها طابع التعميمات المطلقة بينما تفوق عليه ابن الأزرق في تبني فكرة نسبية الاحكام. ومعنى ذلك ان دراسة الظاهرة لا يكفي لاطلاق الاحكام وانما يجب اخضاعها للتجربة والايمان بنسبية النتائج حتى تتحول هذه الاحكام الى بمثابة القانون العلمي.

لعل من اهم المؤثرات التي بلورت فكر ابن خلدون ونظرته الموضوعية القائمة على رصد الواقع السياسي، هي مشاركته الفاعلة في ميدان سياسة عصره سواء في تونس في المغرب العربي في ظل سلطة بني مرين حيث اصبح كاتب سر السلطان، او في مصر في عهد السلطان برقوق، حيث شغل منصب قاضي قضاة المالكية. وعاش

ابن خلدون في خضم المؤامرات والدسائس السياسية. بل أنه قابل تيمورلنك عند حصاره دمشق، وهرب من المدينة قبل سقوطها بايديه والمذبحة التي اوقعها بأهلها.

كان ابن خلدون فقيها مالكيا استمد أفكاره من المذهب المالكي ومن الفكر الإسلامي بصورة عامة، لكنه زاد على من سبقه بأنه انطلق من الواقع الى تصوير القوانين العلمية المفسرة لظواهره وذلك عن طريق الملاحظة والمقارنة. ويصل الى نتيجة بأن السلوك الإنساني يتميز بالانتظام. وكشف ابن خلدون عن القوانين التي تحكم هذا الانتظام، ومن ثم قدم علما وضعيا جديد لم يكن معروفا من قبل اطلق هو عليه تسمية علم العمران.

وقد حاول ابن خلدون نتيجة ذلك ان يعمم ما تمثلت امامه من حقائق بفعل الملاحظات والمقارنات التي عقدها، وفي شكل قوانين عامة يصح تطبيقها على جميع الشعوب والاقوام. بينما الحقيقة ان هذه النتائج والخلاصات يصبح تطبيقها على الشعوب التي درسها دون غيرها ولا يصح تعميمها. ففيما يخص نظرية العصبية قد حدد ثلاثة أجيال لسقوط الدول، وهذا كله لايصدق الا بشأن الدول التي كانت محلا لملاحظاته في عصره.

وما امتاز به ابن خلدون هو انه اخضاع المسلمات التي تحدث من سبقه عنها الى التجربة والرصد الواقعي لمعرفة مدى صحتها. ويمكن الاستدلال على ذلك عن طريق تناول بعض المقولات التي نادى بها ابن خلدون والبحث في اصوله ودورها في تطوير هذه المقولات على ضوء قراءاته للواقع. وفقا للآتي:

١- إن الانسان مدني بطبعه:

بنى ابن خلدون على هذا القول فكرة العمران، عندما قال ان الاجتماع الإنساني ضروري، فالإنسان يحتاج الى الغذاء والدفاع عن نفسه، لكنه لا يستطيع تحقيق ذلك الا بالاستعانة بابناء جنسه

٢-مقولة ارسطو الانسان حيوان سياسي

يرى ان خلدون ان الاجتماع البشري اذا حدث لابد من وازع يدفع عن البشر طباعهم الحيوانية ويمنع عدوان بعضهم على البعض الاخر وهنا تأتي الحاجة الى السلطان واليد القاهرة. وينتج عن ذلك تقسيم السلطة بين الحكام والمحكومين.

ابن الأزرق والمنهج التجريبي

ولد ابن الأزرق في بلاد الاندلس بعد وفاة ابن خلدون بأكثر من عشرين عاما وانتل الى غرناطة ومن ثم الى بلاد المغرب في فاس وتلمسان وتونس. تعمق في قراءة مقدمة ابن خلدون، ثم قدم تلخيصا لها في كتابه (بدائع السلك في طبائع الملك).

كانت تجربة ابن الأزرق السياسية لا تقل عن تجربة ابن خلدون قسوة وتعقيدا. فقد عاد الى الاندلس وعمل تحت حكم الدولة النصرية في غرناطة آخر الكيانات السياسية الإسلامية في الاندلس، ثم خرج منها في سنواتها الأخيرة، متوجها الى الشرق لشرح قضية الاندلس والتماس العون من ملوك المغرب ومصر.

قلنا بأن ابن الأزرق قد انطلق في بلورة أفكاره السياسية من مقدمة ابن خلدون. وقد قسم كتابه الى مقدمتين واربع كتب وخاتمة، المقدمة الأولى في تقرير الملك تجريبيا أي ظاهرة السلطة السياسية بوصفها ظاهرة اجتماعية اما في المدمة الثانية فتتناول ظاهرة الملك بوصفها ظاهرة شرعية، وفيما يخص وجوب الملك تجريبا يضع ابن الأزرق نحو عشرين حقيقة علمية او سبب لذلك ومنها ان الملك منصب طبيعي للإنسان لانه يقف في وجه الوازع العدواني المتاصل لدى البشر. وان السلطان اذا لم يكن له ما يكبح جماحه فانه يطغى في العدوان. والتميز الذي جعله يتفوق على ابن خلدون فيما يخص فكرة الحتمية والارتباط بفكرة النسبية. فلئن كانت العصبية سببا في حصول الملك فانها ليست وحدها التي تبقى ذلك الملك. اما حول دور الدين في ديمومة الدولة فهو رفض اطلاق ابن خلدون لهذا القول. اما ابن الأزرق فرأى ان الدعوة الدينية ليس وحدها التي تسهم في ديمومة الدولة وتتفوق على مسالة العصبية، فهناك أمم وحشية تستمد قوتها وديمومتها من توحش أبنائها. فاضاف ابن الأزرق فكرة النسبية .

المقارنة بين ابن خلدون وابن الأزرق الفارقي

١-كلا الرجلين فقيهين مالكيين، لم يخرجا عن المفاهيم الإسلامية الرئيسة

٢-ابن الأزرق كرس كتابه للسياسة ولم يترك جانبا من جوانب السياسة الى احصاها في كتابه، فقدم نظرية عامة لتفسير شتى قطاعات عالم السياسي، بينما تطرق ابن خلدون لعدة علوم اجتماعية من قبيل الاجتماع والاقتصاد وفلسفة التاريخ والجغرافية السياسية والاجتماع السياسي ونحو ذلك.

٣-تميز ابن الأزرق بوضوح أفكاره وسلاستها خلافا لابن خلدون الذي تميز بغموض مصطلحاته فضلا عن رفضه الإشارة الى مصادره بزعم انه اول من استخرج هذه الأفكار

٤-اعطى ابن الأزرق أهمية كبيرة لما اطلق عليه تسمية السياسة الشرعية فهو لم يقتصر عند التفسير المادي للظواهر كإبن خلدون وانما فسر انهيار الدولة بفعل الفساد والانحلال وانعدام الثقة بين الحاكم والمحكوم والتمزق السياسي انطلاقا من تجربته السياسية في الاندلس

٥- طبق ابن الأزرق المنهج العلمي التجريبي بكل مقوماته المعاصرة من موضوعية ونسبية فزاد على ابن خلدون بالنسبية التي هي سمة المنهج العلمي الحديث، فقد تميزت نظريته بالجزيئات والتفريعات المستقراة من الواقع بدرجة اكبر من ابن خلدون،